كيف أصنع انطباعًا إيجابيًّا في الحصّة الأولى لدى التلاميذ؟

-مادة التربية الإسلامية أنموذجا-

لعل اللقاء الأول الذي يجمع الأستاذ بالتلاميذ مفصلي في مسار السنة الدراسية، قد يفتح للأستاذ باب القبول والاحترام، ويرسم له في أذهان المتعلمين صورة مثالية تعينه على أداء رسالته؛ كما قد يخلف عنه صورة سلبية يظل يدفع ضريبتها طوال السنة.

ومن هنا جمعت جملة من التوجهات العامة التي يحسن استحضارها في الحصة الأولى؛ حتى تتشكل الصورة المنشودة عن أستاذ المادة.

ويغلب في بداية الموسم الدراسي ألا يحضر في الحصة الأولى إلا عدد قليل من التلاميذ، يكون أكثرهم من المهتمين بالدراسة، أما غيرهم فقد يتأخر التحاقه إلى الأسبوع الثاني، وربما الثالث؛ وليس من الحكمة أن يظل الأستاذ مترقبا اكتمال العدد؛ لأنه محكوم بمقرر وزاري يحدد له آجال إنجاز البرنامج وإجراء فروض الدورة الأولى، وكل أسبوع يؤخر فيه البداية الفعلية سيعود عليه ضغطا عند نهاية الدورة، وقد يضطره إلى الإسراع حيث ينبغي التمهل، أو الاختصار حيث يحتاج الدرس إلى البيان والتثبيت.

لذلك، يغتنم الأستاذ حضور عشرة تلاميذ، أو خمسة، أو أقل من ذلك، فيجري معهم ما جرى به العمل في الحصة الأولى من التعارف، والتعريف بالمادة، وبيان خصوصيتها وأهميتها.

ويخصص الحصة الثانية لبناء ميثاق القسم ومنهجية الاشتغال والتعاقد الديداكتيكي، على أن يكون الأسبوع الثاني موعدا لإجراء التقويم التشخيصي.

وقد يسأل القارئ سؤلا وجيها؛ إذا كان معظم التلاميذ لم يحضروا، فما جدوى استثمار الحصة الأولى في التعارف وتشكيل صورة إيجابية عن الأستاذ؟ وكيف تتحقق هذه الغاية ولم يحضر إلا ربع التلاميذ، أو ثلثهم، أو أقل؟

والجواب؛ أن هؤلاء القلة هم رسل الأستاذ إلى بقية زملائهم؛ فهم الذين سيرسمون عنه الصورة الأولى، وينقلون إلى المتغيبين ملاحظاتهم وانطباعاتهم؛ ولما كانوا في الغالب من التلاميذ المجتهدين وكانت لهم منزلة معرفية معتبرة في نظر زملائهم، فإن ما ينقلونه عن الأستاذ يكون بالغ التأثير، قريبا من القبول والتسليم.

ثم يأتي التلميذ المتغيب في الحصة الموالية وهو يحمل صورة أولية سمعها من زملائه، فيشرع -من غير قصد واع- في اختبارها بنفسه؛ يلاحظ طريقة دخول الأستاذ، ونبرة صوته، وأسلوب حديثه، ومقدار تمكنه من مادته، وكيفية تعامله مع التلاميذ؛ ليتحقق مما بلغه عنه، أو ليعيد تشكيل الصورة على ضوء تجربته الخاصة.

وهذا أمر تؤكده التجربة في السلكين معا؛ لأنه متصل بطبيعة الإنسان الذي يستفزه كل جديد، ويحمله الغموض على السؤال والاستكشاف، فيسعى إلى تكوين انطباع عن الدرس الجديد قبل أن تتاح له معرفة حقيقية به.

ولعلك تسأل الآن: ما الذي يجعلني أبدو في صورة مثالية في أعين التلاميذ؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال، ينبغي أن نسير وفق مراحل متدرجة، وأن نبدأ بالسؤال الأول:

ما أول شيء أفعله عند دخولي القسم؟

وأنا أفترض هنا أن القارئ لم يسبق له أن خاض تجربة كاملة في تدبير القسم، وأن معرفته به لا تعدو صورا علقت بذاكرته حين كان تلميذا، أو مواقف محدودة عاشها في أثناء التداريب الميدانية بمركز التكوين؛ أما مباشرة الحصة الأولى بما يحيط بها من حساسية، وما يترتب عليها من آثار، فهي تجربة مختلفة تحتاج إلى إعداد واع.

المرحلة الأولى: الدخول المنظم إلى القسم

حين يدخل الأستاذ القسم ينبغي ألا يبدو مترددا أو مضطربا أو باحثا عما يفعله، بل يدخل وقد استقر في ذهنه تصور واضح للحصة ومراحلها؛ يضع أدواته في هدوء ويهيئ نفسه ثم يثبت على السبورة تاريخ اليوم وعنوان الحصة ومحاورها، حتى يدرك التلاميذ منذ اللحظة الأولى أنهم أمام أستاذ منظم يعرف ما يريد وإلى أين يقود حصته.

ويمكن أن تكتب محاور الحصة على السبورة على النحو الآتي:

- التعارف بين الأستاذ والتلاميذ.
- التعريف بمادة التربية الإسلامية وبيان خصوصيتها.
- الاتفاق على الدفتر واللوازم المدرسية المطلوبة.

ولا ينبغي الاستهانة بهذه الخطوات البسيطة؛ لأن التلميذ يقرأ هيئة الأستاذ وتنظيمه وطريقة وقوفه، وحسن تدبيره للوقت والفضاء؛ وقد تكون دقائق الدخول الأولى أبلغ في تشكيل صورته من كلام طويل يقوله عن نفسه بعد ذلك.

المرحلة الثانية: الصمت الذي يسبق الكلمة الأولى

بعد أن يهيئ الأستاذ نفسه، ويثبت تاريخ الحصة ومحاورها على السبورة، يستقبل التلاميذ عند دخولهم.

وتبدأ قراءةُ شخصية الأستاذ قبل أن يتكلم؛ بالنظر إلى هندامه، فهو أول ما يقع عليه بصر المتعلمين، وصدق من قال: «ثيابك ترفعك قبل جلوسك، وكلامك يرفعك بعد جلوسك». ولذلك يحرص الأستاذ على ارتداء لباس تربوي مهني؛ ووزرة تقيه تشتيت انتباه التلاميذ بتتبُّع تفاصيل لباسه، وتحدُّ من الضوضاء البصرية داخل الفصل، كما تعفيه مؤونة المراقبة المستمرة لهندامه، وتجنِّبه ما قد يتخذه بعض التلاميذ مادةً للسخرية أو التعليق.

هذا عن الهندام؛

ولا ينبغي له أن يتعجل الحديث إلى أحدهم أو ممازحته، كما لا ينبغي أن يستهل اللقاء بزجر تلميذ أو تقريعه؛ لأن كلا المسلكين يبعث برسائل مبكرة قد تنقض الصورة التي يريد الأستاذ بناءها في هذه الحصة؛ الممازحة المستعجلة قد توحي بضعف الحدود، والقمع غير المبرر قد يرسم صورة الأستاذ المتوتر الذي يستعرض سلطته قبل أن يوجد ما يستدعيها.

والغالب ألا يصدر من التلاميذ في الحصة الأولى ما يستوجب تدخلا حازما؛ لأسباب عدة:

أولها أن الفئة التي تبادر إلى الحضور لا تكون غالبا من مثيري الفوضى.

وثانيها أن التلميذ في هذه المرحلة يكون مشغولا بإشباع فضوله أكثر من اشتغاله بالتشويش.

فالأستاذ الجديد بالنسبة إليه مصدر غموض وتساؤل؛ لم يعرف بعد مقدار حزمه ولا طبيعة معاملته، ولا الحدود التي يسمح بها ولذلك يحتاط في سلوكه، ويؤثر الترقب حتى تتضح له شخصية الأستاذ.

وقد يستغرق استقرار القسم دقائق، ولا سيما إذا كان عدد الحاضرين كبيرا وكان بينهم سابق معرفة؛ وقد لا يستغرق إلا لحظات يسيرة إذا كان العدد قليلا؛ وفي الحالتين يلتزم الأستاذ الصمت، فلا يسارع إلى رفع صوته ولا ينازع الضجيج بضجيج مثله، وإنما يقف وقفة ثابتة هادئة تدعو إلى الإنصات دون أن يطلب السكوت بلسانه.

والصمت المقرون بتوزيع النظرات هو صمت الحاضر الواثق؛ ولذلك ينبغي يتواصل الأستاذ معهم بصريا تحديقا ليس في إحراج ولا خجل؛ ومن الخطأ أن يظل بصره معلقا بالسقف أو مصروفا إلى السبورة أو منخفضا إلى الأرض؛ لأن تجنب النظر قد يقرأ؛ بحق أو بغير حق علامة على التردد والخوف، ويمنح بعض التلاميذ شعورا بفراغ الفضاء من القيادة.

فليبادر الأستاذ إلى مقابلة الوجوه وليمرر نظره في أنحاء القسم بطمأنينة واتزان حتى يعم الهدوء، وتستقر الأنظار عليه، ويتهيأ التلاميذ لسماع أول كلمة ينطق بها؛ وتلك الكلمة ستكون مفتاح القراءة الأولى لشخصيته.

المرحلة الثالثة: الكلمة الافتتاحية وسلطة البيان

يحسن بالأستاذ أن يستفتح لقاءه بكلمة ترحيبية فصيحة، تتخللها مسحة خفيفة من السجع غير المتكلف؛ فإن جمال العبارة وحسن الإلقاء وانتظام المعنى، كل ذلك يبني في ذهن التلميذ اعترافا مبكرا بالكفاية اللغوية للأستاذ، ويكسبه هيبة علمية.

غير أنني لا أشجع على ملازمة هذا الأسلوب في سائر الحصص ولا سيما حصص بناء الدروس؛ لأن لكل مقام لغته، ولكل فئة مفتاحا يلائمها؛ والفرق بين الحصة الأولى وغيرها يظهر في أمرين:

- **أولًا: طبيعة الفئة الحاضرة في اللقاء الأول**

يغلب على المبادرين إلى الحضور أنهم من التلاميذ المجدين، وهؤلاء يلتفتون إلى دقائق الكلام ويميزون بين أستاذ يملك عبارته ويضبط أسلوبه، وآخر يتعثر في التعبير أو يرسل كلامه ركيكا مضطربا؛ وقد يكون بين الحاضرين ولا سيما في السلك التأهيلي وبالأخص في السنة الثانية من البكالوريا من يمتلك ذائقة أدبية رفيعة وثقافة لغوية واسعة، قد لا يجاريه فيها بعض المدرسين.

فإذا ظهر الأستاذ في لقائه الأول متمكنا من لغته حسن البيان، واضح الفكرة، نال اعتراف هذا الصنف من التلاميذ وإعجابه، وكانوا أقدر الناس على نقل تلك الصورة إلى زملائهم.

- **ثانيًا: اختلاف جمهور الحصص اللاحقة**

يحضر بعد ذلك تلاميذ متفاوتون في الدافعية والاهتمام؛ فمنهم من لا تعنيه الفصاحة لذاتها ولا يستهويه الكلام الذي لا يفهمه، مهما بلغ من جمال الصياغة وسمو البيان؛ وإنما يستدرج هؤلاء إلى التعلم بحسن إثارة الموضوع وربطه باهتماماتهم وتقديمه بأسلوب واضح يجذب انتباههم ويشعرهم بأن الدرس يمس حياتهم، ولهذا طرائق في عرض المضامين وتسويقها تربويا لعلنا نفرد لها مقالا آخر مشفوعا بالأمثلة التطبيقية.

وينبغي أن تركز الكلمة الافتتاحية على الترحيب بالتلاميذ، والتعبير عن السعادة بلقائهم، والإشادة بما توحي به وجوههم من استعداد لسنة دراسية متميزة. وليكن المدح صادقا معتدلا لا تفوح منه رائحة المبالغة أو التزلف؛ ولكنه يحمل إليهم رسالتي التفاؤل والتقدير.

فالمدح إذا صدر في موضعه، وأُحسن اختيار عبارته، كان مفتاحًا إلى قلب التلميذ ولا سيما أن كثيرًا من المتعلمين يعانون ضعف تقدير الذات، ويحتاجون إلى من يكتشف جوانب القوة فيهم، فإذا تلقى التلميذ هذا التقدير من أستاذه، رأى فيه مغنمًا نفسيًّا كبيرًا، يسد نقصا فيه.

ولا يعني ذلك أن يوزع الأستاذ الثناء جزافًا أو يصف التلاميذ بما لا حقيقة له؛ وإنما المقصود أن يستخرج من المشهد ما يستحق الإشادة: مبادرتهم إلى الحضور، وإنصاتهم، واستعدادهم، وانتظامهم، ثم يجعل من هذا الثناء جسرًا يعبر بهم إلى ما يرجوه منهم طوال السنة.

نموذج لكلمة ترحيبية

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم.

أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي أُرَحِّبُ بِكُمْ فِي مُسْتَهَلِّ سَنَةٍ دِرَاسِيَّةٍ جَدِيدَةٍ، وَأَسْتَفْتِحُ لِنَفْسِي مَعَكُمْ عَهْدًا جَدِيدًا، إِذْ أَكُونُ مُدَرِّسَكُمْ لِمَادَّةِ التَّرْبِيَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي هَذَا الْعَامِ.

وَإِنِّي لَأُهَنِّئُ النَّاجِحِينَ مِنْكُمْ بِمَا بَلَغُوا، فَإِنَّ نَجَاحَهُمْ -بَعْدَ تَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَى- ثَمَرَةُ جِدٍّ بَذَلُوهُ، وَاجْتِهَادٍ لَزِمُوهُ؛ غَيْرَ أَنَّ النَّجَاحَ السَّابِقَ لَا يُغْنِي عَنِ الْجِدِّ اللَّاحِقِ، وَهَذِهِ السَّنَةُ مَحْفُوفَةٌ بِجُمْلَةٍ مِنَ الصِّعَابِ، وَلَكِنَّ الصِّعَابَ لَا تَقْهَرُ عَزْمًا صَادِقًا، وَلَا تَسْتَطِيعُ سَبِيلًا إِلَى نَفْسٍ أَبِيَّةٍ؛ وَمِثْلُكُمْ -إِنْ شَاءَ اللَّهُ- أَهْلٌ لِتَجَاوُزِهَا وَالظَّفَرِ بِغَايَاتِهَا.

وَأَمَّا مَنْ لَمْ يُوَفَّقْ إِلَى النَّجَاحِ فِي الْعَامِ الْمَاضِي، فَلَا يَحْسَبَنَّ أَنَّ الرُّسُوبَ خَاتِمَةُ الْمَسِيرِ، وَلَا أَنَّهُ حُكْمٌ عَلَيْهِ بِالْعَجْزِ وَالتَّقْصِيرِ؛ فَرُبَّ عَثْرَةٍ أَيْقَظَتِ الْهِمَّةَ، وَرُبَّ إِخْفَاقٍ كَانَ مَبْدَأَ النَّجَاحِ. وَقَدْ يَكُونُ الرُّسُوبُ فُرْصَةً لِمُرَاجَعَةِ النَّفْسِ، وَتَدَارُكِ مَا فَاتَ، وَاسْتِعَادَةِ الْبَوْصَلَةِ بَعْدَ اضْطِرَابِ وِجْهَتِهَا.

وَكَمْ رَأَيْنَا مِمَّنْ تَعَثَّرَ حِينًا، ثُمَّ أَحْدَثَ فِي نَفْسِهِ تَغْيِيرًا، وَاسْتَأْنَفَ سَبِيلَهُ بِعَزْمٍ جَدِيدٍ، فَانْطَلَقَ فِي مَدَارِجِ النَّجَاحِ، بَعْدَ أَنْ ظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ سَيَبْقَى أَسِيرًا فِي رِبْقَةِ الْفَشَلِ.

وَإِنِّي لَأَثِقُ بِكُمْ جَمِيعًا، وَأَرَى فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ قُدْرَةً عَلَى النَّجَاحِ وَالتَّفَوُّقِ، وَأَنَا مُسْتَعِدٌّ لِأَنْ آخُذَ بِأَيْدِيكُمْ، وَأُعِينَكُمْ. مَا اسْتَطَعْتُ. عَلَى بُلُوغِ مَا تَرْجُونَ؛ فَابْذُلُوا الْجُهْدَ، وَاصْدُقُوا الْعَزْمَ، وَاسْتَعِينُوا بِاللَّهِ، فَإِنَّ مَنْ صَدَقَ فِي طَلَبِ الْغَايَةِ، وَأَحْسَنَ سُلُوكَ سَبِيلِهَا، أَوْشَكَ أَنْ يَبْلُغَهَا.

فَمَرْحَبًا بِكُمْ جَمِيعًا، وَمَرْحَبًا بِسَنَةٍ نَجْعَلُهَا -بِعَوْنِ اللَّهِ- سَنَةَ جِدٍّ وَنَجَاحٍ.

المرحلة الرابعة: التعارف وبناء الهوية الأولى

بعد الفراغ من الكلمة الافتتاحية، يعلن الأستاذ انتقاله إلى أولى مراحل الحصة، وهي مرحلة التعارف.

وهذه المرحلة هي أول خيط في نسج العلاقة التربوية؛ إذ يتعرف التلاميذ إلى أستاذهم ويتعرف هو إليهم، ويخرج كل طرف من دائرة الغموض إلى دائرة المعرفة الأولية.

وأول ما ينبغي أن يحرص عليه الأستاذ أن يثبت اسمه في أذهان التلاميذ؛ لأن الاسم جزء من هويته المهنية داخل المؤسسة، وإذا لم يعرفه المتعلمون باسمه، بحثوا له عن لقب من عندهم، وقد يكون لقبًا لا يليق بمكانته ولا بالصورة التي يريد بناءها.

ولذلك يذكر اسمه بوضوح ثم يكتبه كاملًا على السبورة؛ إذ قد يذهل بعض التلاميذ عن سماعه أو يلتبس عليهم ضبطه، فتكون الكتابة أدعى إلى رسوخه في أذهانهم.

ثم يعرّف الأستاذ بنفسه تعريفًا يتحفظ فيه عن كشف تفاصيل حياته الشخصية التي لا صلة لها بالمقام؛ فلا حاجة إلى ذكر محل السكن، ولا أحوال الأسرة، ولا غير ذلك مما لا يخدم الغرض التربوي؛ وإنما يقتصر على ما يسوق لشخصيته العلمية والمهنية: كتخصصه وشهاداته وخبراته المتصلة بالمادة، وما أنجزه في مجالها من بحث أو تأليف إن وجد، وليس هذا المقام مجالًا للتواضع الذي يحمل على نكران الذات أو كتمان ما يتصل به من المؤهلات والمنجزات؛ فكل ما يملأ أعين التلاميذ منك، ويبعث في نفوسهم المهابة والتقدير، يجب أن تذكره على سبيل التحدث بنعمة الله؛ وستجني أثره طوال السنة الدراسية، وتكرّس به صورةً إيجابيةً راسخةً عنك.

تعارف التلاميذ

بعد ذلك ينتقل الدور إلى التلاميذ، فيطلب من كل واحد منهم أن يقدم نفسه؛ ويحسن أن يحدد لهم سلفا العناصر المطلوبة؛ حتى لا تطول المداخلات ولا يذكر بعضهم من التفاصيل ما يوقعه في الحرج.

وتختلف طبيعة الأسئلة باختلاف المرحلة العمرية؛ فما يناسب تلميذ السلك الإعدادي قد يبدو طفوليا في نظر تلميذ السلك التأهيلي، ولا سيما أن هذا الأخير يرى نفسه على أعتاب الرشد ويأنف من الخطاب الذي يشعره بأن الأستاذ يعامله معاملة الأطفال.

ففي السلك الإعدادي يمكن أن يتضمن التعريف:

- الِاسْمُ الْكَامِلُ .
- مَكَانُ الْإِقَامَةِ، إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي ذِكْرِهِ حَرَجٌ .
- الْهِوَايَةُ أَوِ النَّشَاطُ الْمُفَضَّلُ .
- الْمَادَّةُ الَّتِي يَمِيلُ إِلَيْهَا .
- أَهَمُّ صُعُوبَةٍ يُوَاجِهُهَا فِي الدِّرَاسَةِ.

أما في السلك التأهيلي، فينبغي أن تكون الأسئلة أقرب إلى اهتمام المتعلم واختياراته، فيُسأل عن:

- اسْمُهُ الْكَامِلُ.
- سَبَبُ اخْتِيَارِهِ الشُّعْبَةَ أَوِ الْمَسْلَكَ.
- الْمَادَّةُ الَّتِي يَجِدُ نَفْسَهُ فِيهَا.
- مَشْرُوعُهُ الدِّرَاسِيُّ أَوِ الْمِهْنِيُّ، إِنْ كَانَ قَدْ بَدَأَ يَتَشَكَّلُ.

وقد يستخرج الأستاذ من هذه التعريفات معطيات نافعة جدا؛ فيكتشف المتفوق والخجول، وصاحب المشروع والمتردد، ومن يعاني صعوبة في التعبير، ومن يحمل تصورا سلبيا عن المادة؛ غير أنه لا يحاكم التلميذ من جواب واحد ولا يحوله إلى وصف ثابت يلازمه؛ لأن التعارف الأولي يقدم مؤشرات ولا يمنح أحكاما نهائية.

وهذه المرحلة تستغرق دقائق قليلة إذا كان العدد قليلا، وقد تمتد أكثر بحسب عدد الحاضرين. والمهم ألا تتحول إلى حكايات جانبية تستهلك زمن الحصة.

المرحلة الخامسة: لماذا ندرس التربية الإسلامية؟

بعد الفراغ من التعارف، ينتقل الأستاذ إلى أهم محطة في الحصة: التعريف بالمادة وبيان خصوصيتها الكفائية في حياة المتعلم. وهذه المرحلة تحتاج إلى إعداد ذهني ومعرفي سابق؛ لأن المطلوب أن يقود التلاميذ إلى اكتشاف ضرورتها بأنفسهم.

ويمهد للانتقال بقوله مثلًا:

> لَقَدْ تَعَرَّفْتُ إِلَيْكُمْ، وَتَعَرَّفْتُمْ إِلَيَّ، وَبَقِيَ أَنْ نَتَعَرَّفَ جَمِيعًا إِلَى الْمَادَّةِ الَّتِي سَتَجْمَعُنَا خِلَالَ هَذِهِ السَّنَةِ. وَلِذَلِكَ أُرِيدُ أَنْ أَبْدَأَ بِسُؤَالٍ قَدْ يَبْدُو بَسِيطًا، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِالْبَسَاطَةِ الَّتِي تَتَصَوَّرُونَهَا: لِمَاذَا نَدْرُسُ التَّرْبِيَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ فِي الْمَدْرَسَةِ؟

سيجيب التلاميذ غالبًا بأجوبة عامة، ترضي الأستاذ، مثل:

- لِنَتَعَلَّمَ أُمُورَ دِينِنَا.
- لِنَعْرِفَ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ.
- لِنَكْتَسِبَ الْقِيَمَ وَالْأَخْلَاقَ.
- لِنَتَعَرَّفَ إِلَى سِيرَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يتلقى الأستاذ الأجوبة باهتمام، ويثبت وجاهتها من غير أن يعلن حكمه عليها بالرفض أو القبول، ثم يعارضهم اعتراضًا مقصودًا:

> مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَعَلَّمَ أَحْكَامَ الدِّينِ، فَالْمَسَاجِدُ مَفْتُوحَةٌ، وَالدُّرُوسُ الدِّينِيَّةُ مُتَاحَةٌ فِي الْكُتُبِ وَالْوَسَائِطِ الرَّقْمِيَّةِ؛ وَمَنْ أَرَادَ الْأَخْلَاقَ، فَقَدْ يَتَلَقَّاهَا فِي أُسْرَتِهِ، وَيَسْمَعُ عَنْهَا فِي خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ.
>
> فَلِمَاذَا نُخَصِّصُ لِلتَّرْبِيَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ حِصَّةً دَاخِلَ الْمَدْرَسَةِ؟ أَلَيْسَ الْأَوْلَى أَنْ نَجْعَلَ هَذَا الزَّمَنَ لِلرِّيَاضِيَّاتِ وَالْفِيزْيَاءِ وَالْكِيمْيَاءِ وَاللُّغَاتِ؛ لِأَنَّهَا عُلُومٌ تَصْنَعُ الصِّنَاعَةَ، وَتُطَوِّرُ الِاقْتِصَادَ، وَتُحَقِّقُ لِلْمُجْتَمَعِ النَّهْضَةَ وَالِاسْتِقْلَالَ؟

وقد يجيب أحدهم:

وَمَا الْمَانِعُ مِنْ أَنْ نَدْرُسَ الْجَمِيعَ؟

وقد يقول آخر مدفوعًا بعاطفته:

بِالدِّينِ نُحَقِّقُ النَّهْضَةَ وَيَنْصُرُنَا اللَّهُ

وقد يلتزم أكثرهم الصمت؛ لأنهم يشعرون بصحة الجواب الأول، ولكنهم لا يملكون بعد أدوات الدفاع عنه.

وهنا ينبغي التنبيه إلى أن المقصود ليس هو أن يلقي الأستاذ الشبهات على المتعلمين، أو التشكيك في قيمة المادة، وإنما خلخلة الجواب السطحي تمهيدا لبناء جواب أعمق يستشعر معه التلميذ الأهمية الحضارية للمادة؛ ولذلك لا يطرح الأستاذ إلا الاعتراض الذي أعد له جوابا واضحا، ولا يسترسل في استفزاز التلاميذ إلى حد إرباك عقائدهم أو إشعارهم بالسخرية من الدين.

ويمكنه أن يقوي الاعتراض بالأمثلة، فيقول:

حِينَ اجْتَاحَ وَبَاءُ كُورُونَا الْعَالَمَ، تَعَلَّقَ النَّاسُ بِالْأَطِبَّاءِ، وَالْمُخْتَبَرَاتِ، وَالْبَاحِثِينَ فِي عُلُومِ الْأَحْيَاءِ؛ فَظَهَرَتْ قِيمَةُ الطِّبِّ؛ وَحِينَ تَقَعُ الزَّلَازِلُ، يَسْتَعِينُ الْإِنْسَانُ بِالْهَنْدَسَةِ لِتَطْوِيرِ مَبَانٍ أَكْثَرَ قُدْرَةً عَلَى مُقَاوَمَةِ الِاهْتِزَازِ، وَبِالْفِيزْيَاءِ صُنِعَتِ الطَّائِرَاتُ، وَبِالْكِيمْيَاءِ طُوِّرَتِ الْأَدْوِيَةُ، وَبِالرِّيَاضِيَّاتِ قَامَتْ أَنْظِمَةُ الِاقْتِصَادِ وَالِاتِّصَالِ، فَهَذِهِ الْعُلُومُ هِيَ الَّتِي تَصْنَعُ أَدَوَاتِ الْقُوَّةِ وَالتَّقَدُّمِ، فَمَا الْحَاجَةُ إِلَى مَادَّةٍ لَا تَصْنَعُ طَائِرَةً وَلَا دَوَاءً وَلَا جِسْرًا؟

وقد يستعمل الأستاذ عبارةً صادمة لاستثارة التفكير:

ثم يسألهم:

أَفَلَا يَكُونُ الْأَنْفَعُ لَنَا أَنْ نَتَفَرَّغَ لِهَذِهِ الْعُلُومِ، فَنَلْحَقَ بِالْأُمَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَنَتْرُكَ تَعَلُّمَ الدِّينِ لِلْمَسْجِدِ وَالْأُسْرَةِ؟

قلب الإشكال: هل يكفي العلم وحده؟

وبعد أن يستقر في أذهان التلاميذ أن العلوم التجريبية ضرورة لا غنى عنها، يقلب الأستاذ جهة السؤال:

إِذَنْ، لَا خِلَافَ فِي أَنَّ الطِّبَّ وَالْهَنْدَسَةَ وَالْفِيزْيَاءَ وَالْكِيمْيَاءَ ضَرُورِيَّةٌ لِبِنَاءِ الْحَضَارَةِ، وَلَكِنَّ السُّؤَالَ الَّذِي بهَمَتْ؛ فِي خَرَابِ الْمُجْتَمَعَاتِ وَتَمْزِيقِهَا؟ انْظُرُوا إِلَى الْمَرْأَةِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ، وَانْظُرُوا إِلَى الطِّفْلِ الْفِلَسْطِينِيِّ، كَيْفَ يَكْتَوِيَانِ بِنَارِ الدَّبَّابَاتِ وَالصَّوَارِيخِ، وَهِيَ أَدَوَاتٌ صَنَعَتْهَا عُقُولٌ عَرَفَتْ قَوَانِينَ الْفِيزْيَاءِ وَالْكِيمْيَاءِ، ثُمَّ لَمْ تَجِدْ مِنَ الْقِيَمِ مَا يَمْنَعُهَا مِنْ تَسْخِيرِ تِلْكَ الْمَعْرِفَةِ فِي سَحْقِ الْإِنْسَانِ!

ثم يستكثر من شواهد ذلك:

أَفَلَيْسَتْ هَذِهِ الْعُلُومُ نَفْسُهَا هِيَ الَّتِي صَنَعَتْ كَثِيرًا مِنْ مَآسِي الْإِنْسَانِ، وَأَسْهَمَتْ؛ فِي خَرَابِ الْمُجْتَمَعَاتِ وَتَمْزِيقِهَا؟ انْظُرُوا إِلَى الْمَرْأَةِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ، وَانْظُرُوا إِلَى الطِّفْلِ الْفِلَسْطِينِيِّ، كَيْفَ يَكْتَوِيَانِ بِنَارِ الدَّبَّابَاتِ وَالصَّوَارِيخِ، وَهِيَ أَدَوَاتٌ صَنَعَتْهَا عُقُولٌ عَرَفَتْ قَوَانِينَ الْفِيزْيَاءِ وَالْكِيمْيَاءِ، ثُمَّ لَمْ تَجِدْ مِنَ الْقِيَمِ مَا يَمْنَعُهَا مِنْ تَسْخِيرِ تِلْكَ الْمَعْرِفَةِ فِي سَحْقِ الْإِنْسَانِ!

ثم يضيف:

وَاقْرَؤُوا تَارِيخَ الْقُنْبُلَةِ الَّتِي أُلْقِيَتْ عَلَى هِيرُوشِيمَا يَوْمَ السَّادِسِ مِنْ أَغُسْطُسَ سَنَةَ 1945م؛ سَتَجِدُونَ وَرَاءَهَا مَشْرُوعَ مَانْهَاتِنَ الَّذِي تَوَلَّى رُوبَرْتُ أُوبَنْهَايْمَرُ قِيَادَتَهُ الْعِلْمِيَّةَ، وَاسْتَنَدَ فِي أُصُولِهِ النَّظَرِيَّةِ الْعَامَّةِ إِلَى مُكْتَسَبَاتِ الْفِيزْيَاءِ الْحَدِيثَةِ، وَمِنْهَا مَبْدَأُ تَكَافُؤِ الْكُتْلَةِ وَالطَّاقَةِ الَّذِي عَبَّرَتْ عَنْهُ مُعَادَلَةُ أَيْنِشْتَايْنَ الشَّهِيرَةُ؟؟؟، صَحِيحٌ أَنَّ أَيْنِشْتَايْنَ نَفْسَهُ لَمْ يُشَارِكْ فِي صِنَاعَةِ الْقُنْبُلَةِ؛ لَكِنْ هُوَ ذَا عِلْمُ الْفِيزْيَاءِ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يُضِيءَ مَدِينَةً، يَمْحُو مَدِينَةً فِي نَفْسِ الْوَقْتِ؛ وَكَمَا يُمْكِنُ أَنْ يَمُدَّ الْحَيَاةَ بِأَسْبَابِ الْقُوَّةِ، يُمْكِنُ أَيْضًا أَنْ يَفْتَحَ لِلْبَشَرِيَّةِ أَبْوَابَ الْفَنَاءِ.

ثم يثير سؤالا استنكاريا؛ يمهد للجواب:

وَالْيَوْمَ نَتَحَدَّثُ بِإِعْجَابٍ عَنْ وُصُولِ الْإِنْسَانِ إِلَى الْقَمَرِ، وَنَعُدُّ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ فُتُوحَاتِ الْعِلْمِ، لَكِنْ؛ مَا قِيمَةُ عِلْمٍ أَوْصَلَ الْإِنْسَانَ إِلَى الْقَمَرِ، وَلَمْ يُوصِلْهُ إِلَى أَخِيهِ الَّذِي يَمُوتُ جُوعًا فِي تْشَادَ، أَوْ إِلَى طِفْلٍ يَمُوتُ تَحْتَ الْأَنْقَاضِ فِي غَزَّةَ؟ مَا قِيمَةُ حَضَارَةٍ تَبْلُغُ أَبْعَدَ نُقْطَةٍ فِي الْفَضَاءِ، ثُمَّ تَعْجِزُ عَنْ قَطْعِ أَمْتَارٍ قَلِيلَةٍ لِإِيصَالِ رَغِيفِ خُبْزٍ أَوْ جُرْعَةِ دَوَاءٍ إِلَى مُحَاصَرٍ؟

ثم يمثل بمجال آخر كعلم الطب، تعزيزا للفكرة:

ثُمَّ انْظُرُوا إِلَى عِلْمِ الطِّبِّ، وَهُوَ مِنْ أَشْرَفِ الْعُلُومِ وَأَلْصَقِهَا بِحِفْظِ الْإِنْسَانِ، كَيْفَ أَمْكَنَ أَنْ يَتَحَوَّلَ فِي بَعْضِ مَرَاحِلِ التَّارِيخِ إِلَى أَدَاةٍ مِنْ أَدَوَاتِ الِاخْتِرَاقِ الِاسْتِعْمَارِيِّ، اقْرَؤُوا لِدِيفِيد أَرْنُولْد كِتَابَهُ «الطِّبُّ الْإِمْبِرْيَالِيُّ وَالْمُجْتَمَعَاتُ الْمَحَلِّيَّةُ»، وَكُتُبَ شِلْدُون وَاتْس «الْأَوْبِئَةُ وَالتَّارِيخُ: الْمَرَضُ وَالْقُوَّةُ وَالْإِمْبِرْيَالِيَّةُ»، لِتَرَوْا كَيْفَ تَدَاخَلَ الْمَرَضُ وَالطِّبُّ وَالسِّيَاسَةُ فِي التَّجْرِبَةِ الِاسْتِعْمَارِيَّةِ.

وَاقْرَؤُوا أَيْضًا كِتَابَ «صِنَاعَةِ السَّرَطَانِ»؛ لِلْمُؤَلِّفِ الْأَمْرِيكِيِّ رَالْف دَبْلِيُو مُوس؛ سَتَرَوْنَ كَيْفَ أَنَّ الْمُؤَسَّسَاتِ الطِّبِّيَّةَ وَشَرِكَاتِ الْأَدْوِيَةِ الْكُبْرَى تُفَضِّلُ صِنَاعَةَ أَدْوِيَةٍ لَهَا أَعْرَاضٌ جَانِبِيَّةٌ بَدَلًا مِنْ إِيجَادِ عِلَاجٍ جَذْرِيٍّ لِلْمَرَضِ، لِأَنَّهُمْ يَسْعَوْنَ إِلَى تَوْسِيقِ سِلْعَتِهِمْ بِشَكْلٍ دَائِمٍ.

ثم يلفت انتباههم لأمر منهجي هام؛

تَأَمَّلُوا هَذِهِ الْكُتُبَ، هَلْ كَتَبَهَا مُسْلِمُونَ أَوْ عَرَبٌ؟ كَلَّا، لَمْ يَكْتُبْهَا خُصُومُ الْحَضَارَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ خَارِجِهَا، وَإِنَّمَا أَلَّفَهَا بَاحِثُونَ غَرْبِيُّونَ مُتَخَصِّصُونَ فِي تَارِيخِهَا؛ لِيَكْشِفُوا أَنَّ الطِّبَّ، عَلَى نُبْلِ غَايَتِهِ، اسْتُعْمِلَ لِاسْتِغْلَالِ الْإِنْسَانِ، وَمَنْفَذًا إِلَى أَرْضِهِ وَثَرْوَتِهِ وَقَرَارِهِ.. فَأَيُّ نَهْضَةٍ هَذِهِ الَّتِي تَتَّخِذُ مِنْ ضَعْفِ الْمَرِيضِ طَرِيقًا إِلَى إِخْضَاعِهِ، وَمِنْ حَاجَةِ الشُّعُوبِ إِلَى الدَّوَاءِ مَدْخَلًا إِلَى نَهْبِ ثَرَوَاتِهَا؟

وهنا سيواجه الأستاذ أحد موقفين:

- قد يقابله المتعلمون بالتأييد، ظنًّا منهم أن هذه العلوم لا قيمة لها، وأن الفيزياء والكيمياء والطب ليست إلا أدوات للدمار والاستعمار. وهذا فهم يناقض المقصود؛ لأننا لا نحاكم العلم في ذاته، ولا نجحد ما حققه للإنسان من منافع، وإنما نحاكم الوجهة التي يُصرف إليها، والقيم التي تضبط استعماله؛ وحين يبين الأستاذ فوائد هذه العلوم، سيدرك المتعلمون أن الإشكال ليس في المعرفة، وإنما في انفصال المعرفة عن الأخلاق.

- وقد يقابلونه بالاعتراض، فيقولون:

إِنَّ هَذِهِ العُلُوم هِيَ التي عَالَجَت الأَمْرَاضَ، وقَرَّبَت المَسَافَات، وَطَوَّرَتْ وَسَائِلَ العَيشِ، وَأَنْقَذَتْ مَلَايِينَ الأَرْوَاحِ.

- وهنا يستفسرهم الأستاذ بالآتي:

هَلْ مَنَعَتْ هَذِهِ الْمَنَافِعُ الْعِلْمَ مِنْ أَنْ يُسْتَخْدَمَ فِي الْقَتْلِ وَالِاسْتِغْلَالِ؟

فإذا أقروا بإمكان الوجهين، قادهم ذلك إلى النتيجة المقصودة:

إِذَنْ، الْعِلْمُ قُوَّةٌ، وَالْقِيَمُ هِيَ الَّتِي تُحَدِّدُ وِجْهَةَ هَذِهِ الْقُوَّةِ؛ وَالْعِلْمُ بِدُونِ قِيَمٍ يَصِيرُ مَصْدَرَ دَمَارٍ.

ومن هذا المدخل ينقل الأستاذ متعلميه إلى بيان أهمية مادة التربية الإسلامية؛ باعتبارها المادة الحاضنة للقيم المؤطرة لحياتنا الحاضرة، والموجهة لمهننا المستقبلية.

فَحِينَ يَكُونُ أَحَدُكُمْ طَبِيبًا، تَمْنَعُهُ قِيَمُهُ مِنْ أَنْ يَسْتَقْوِيَ عَلَى الْمَرِيضِ بِحِرْفَتِهِ، أَوْ يَسْتَغِلَّ ضَعْفَهُ وَحَاجَتَهُ لِنَهْبِ مَالِهِ. وَحِينَ يَكُونُ مُحَامِيًا، تَمْنَعُهُ أَخْلَاقُهُ مِنْ أَنْ يَجْعَلَ عِلْمَهُ سِلْعَةً فِي يَدِ الظَّالِمِ، أَوْ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ ثَغَرَاتِ الْقَانُونِ طَرِيقًا إِلَى إِضَاعَةِ الْحُقُوقِ.. وَحِينَ يَكُونُ مُوَظَّفًا فِي إِدَارَةٍ، يُغْنِيهِ الْحَلَالُ عَنِ الرِّشْوَةِ وَالْمَحْسُوبِيَّةِ وَالْوَجْهِيَّاتِ، وَحِينَ يَكُونُ عَالِمًا، يَسْأَلُ نَفْسَهُ وَضَمِيرَهُ قَبْلَ أَنْ يَصْنَعَ: مَا أَثَرُ مَا أَصْنَعُهُ فِي الْإِنْسَانِ؟ وَلِمَنْ سَتُسَلَّمُ هَذِهِ الْقُوَّةُ؟ وَفِي أَيِّ غَايَةٍ سَتُسْتَعْمَلُ؟

ويُصحِّح تصوُّرَهم لمفهوم التقدُّم، ويُبيِّن لهم موقعَ القِيَم من مجالاته، والدورَ الذي تؤدِّيه في توجيهه وترشيده؛

التَّقَدُّمُ لَيْسَ طَرِيقًا وَاحِدًا، وَإِنَّمَا لَهُ جَنَاحَانِ:

تَقَدُّمٌ مَادِّيٌّ تَصْنَعُهُ الْعُلُومُ وَالْخِبْرَاتُ، وَتَقَدُّمٌ قِيَمِيٌّ تَصْنَعُهُ الْعَقِيدَةُ وَالْأَخْلَاقُ.

وَلَا تُوجَدُ أُمَّةٌ تَنْهَضُ بِجَنَاحٍ وَاحِدٍ؛

ثم يربط ذلك بالسؤال الذي انطلق منه: ها هو الغرب قد تقدَّم من غير أن يدرِّس التربية الإسلامية؛ فكيف تحقق له ذلك؟

وَلَئِنْ حَقَّقَتِ الْحَضَارَةُ الْغَرْبِيَّةُ تَقَدُّمًا مَادِّيًّا وَعِلْمِيًّا هَائِلًا لَا يُنْكِرُهُ مُنْصِفٌ، فَإِنَّ قِطَاعَاتٍ مِنْهَا تُعَانِي فِي الْمُقَابِلِ اضْطِرَابًا قِيَمِيًّا عَمِيقًا...، وَلَا نَقْصِدُ بِالْقِيَمِ مُجَرَّدَ الصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ وَالْإِحْسَانِ وَالْإِنْفَاقِ.. وَغَيْرِهَا مِنَ الْقِيَمِ الْعَمَلِيَّةِ؛ وَإِنَّمَا نَعْنِي أَيْضًا التَّصَوُّرَ الَّذِي يَحْكُمُ عَلَاقَةَ الْإِنْسَانِ بِغَيْرِهِ، وَتَوْزِيعَ الْأَدْوَارِ دَاخِلَ الْأُسْرَةِ وَالْمُجْتَمَعِ، وَمَعْنَى الْأُبُوَّةِ وَالْأُمُومَةِ، وَحُدُودَ الْحُرِّيَّةِ وَالْمَسْؤُولِيَّةِ.

وَلَقَدْ نَشَأَتْ دَاخِلَ بَعْضِ التَّيَّارَاتِ النِّسْوِيَّةِ الْمُتَطَرِّفَةِ فِي أُورُبَّا تَصَوُّرَاتٌ حَوَّلَتِ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ مِنْ مَجَالٍ لِلتَّكَامُلِ إِلَى سَاحَةٍ لِلصِّرَاعِ، وَنَظَرَتْ إِلَى الزَّوَاجِ وَالْأُمُومَةِ بِوَصْفِهِمَا أَدَاتَيْنِ لِلْهَيْمَنَةِ عَلَى الْمَرْأَةِ. وَلِأَجْلِ هَذَا كَتَبَتْ أُورْنَا دُونَاثْ «النَّدَمَ عَلَى الْأُمُومَةِ» تَحْكِي فِيهِ تَجَارِبَ نِسَاءٍ نَدِمْنَ عَلَى دُخُولِ تَجْرِبَةِ الْأُمُومَةِ، وَتُحَرِّضُ النِّسَاءَ عَلَى عَدَمِ الزَّوَاجِ.

ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ هَذَا التَّطَرُّفُ أَنْ أَنْشَأَ تَطَرُّفًا مُقَابِلًا؛ فَظَهَرَتِ اتِّجَاهَاتٌ مِثْلَ «الرِّيدْ بِيلْ» وَ«الْمِغْتَاوْ»، تَنْظُرُ فِي بَعْضِ صُوَرِهَا إِلَى الْمَرْأَةِ بِوَصْفِهَا كَائِنًا مُخَادِعًا يَنْبَغِي الْحَذَرُ مِنْهُ أَوْ هَجْرُهُ وَإِخْضَاعُهُ، بَلْ صَارَ الزَّوَاجُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ مُؤَامَرَةً لِلسَّيْطَرَةِ عَلَى الرَّجُلِ، كَمَا كَانَ عِنْدَ الطَّرَفِ الْآخَرِ مُؤَامَرَةً لِلسَّيْطَرَةِ عَلَى الْمَرْأَةِ.

وَهَكَذَا يَتَقَابَلُ تَطَرُّفَانِ، كِلَاهُمَا يَهْدِمُ الْأُسْرَةَ، وَيُحَوِّلُ الِاخْتِلَافَ الْفِطْرِيَّ إِلَى حَرْبٍ لَا تَنْتَهِي؛ فَتَغِيبُ الْقِيَمُ الدَّافِعَةُ إِلَى عِمَارَةِ الْأَرْضِ، وَيَضِيعُ الْإِنْسَانُ بَيْنَ رَجُلٍ يَخَافُ الْمَرْأَةَ وَامْرَأَةٍ تَخَافُ الرَّجُلَ، وَأَطْفَالٍ يَدْفَعُونَ ثَمَنَ الْخُصُومَةِ الَّتِي لَمْ يَصْنَعُوهَا.

وَعَلَى مُسْتَوَى الْأَخْلَاقِ الْفَرْدِيَّةِ، كَتَبَ زِيغْمُونْت بَاوْمَانْ عَنْ «الْأَخْلَاقِ فِي عَصْرِ الْحَدَاثَةِ السَّائِلَةِ»، كَاشِفًا كَيْفَ تَتَفَكَّكُ الْأَخْلَاقُ وَالرَّوَابِطُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ فِي الْغَرْبِ.

ثم يربط ذلك بواقع التلاميذ؛

إِنَّنَا نَعِيشُ الْيَوْمَ فِي عَالَمٍ مَقْلُوبٍ أَخْلَاقِيًّا؛ وَالْأَشَدُّ مَرَارَةً أَنَّ مُجْتَمَعَاتِنَا الْعَرَبِيَّةَ تَأْخُذُ مِنَ الْغَرْبِ أَحْيَانًا مَظَاهِرَ التَّفَكُّكِ وَالْعَفَنِ، وَتَتْرُكُ وَرَاءَهَا أَسْبَابَ التَّقَدُّمِ الْحَقِيقِيَّةَ: الْجِدِّيَّةَ فِي الْعَمَلِ، وَاحْتِرَامَ الْوَقْتِ، وَإِتْقَانَ الصِّنَاعَةِ، وَنُصْرَةَ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ.

ثم ينتقل لإبراز فاعلية المادة إصلاح هذا الفراغ الحضاري؛

وَمِنْ هُنَا تَأْتِي مَادَّةُ التَّرْبِيَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لِتَفْتَحَ أَعْيُنَكُمْ عَلَى جَانِبٍ يَكَادُ يُغَيَّبُ مِنْ حَيَاتِنَا؛ فَتُذَكِّرُ الْإِنْسَانَ بِمَسْؤُولِيَّتِهِ أَمَامَ خَالِقِهِ، وَبِأَنَّهُ مُؤْتَمَنٌ عَلَى أَخِيهِ الْإِنْسَانِ، وَمُكَلَّفٌ بِعِمَارَةِ الْأَرْضِ. وَأَمَّا مَا سَبَقَ أَنْ سَمِعْتُمُوهُ مِنِّي مِن انْتِقَاصِ هَذِهِ الْمَادَّةِ وَالْهُجُومِ عَلَيْهَا، وَإِنَّمَا كَانَ تَقَمُّصًا مَقْصُودًا لِخِطَابِ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ الْإِسْلَامَ، وَيُهَوِّنُونَ مِنْ شَأْنِ التَّرْبِيَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ حَتَّى نَخْتَبِرَ دَعَاوَاهُمْ، وَنَكْشِفَ تَهَافُتَهَا، وَنُدْرِكَ مَا تُفْضِي إِلَيْهِ مِنْ فَصْلِ الْعِلْمِ عَنِ الْأَخْلَاقِ. وَأَحْسَبُ أَنَّكُمْ قَدْ تَبَيَّنْتُمُ الْآنَ أَنَّ التَّرْبِيَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ ضَرُورَةٌ حَضَارِيَّةٌ؛ تَمْنَحُ الْعِلْمَ ضَمِيرَهُ، وَتَصْنَعُ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَصُونُ الْأَرْضَ وَيَعْمُرُهَا.

ولئن كان ما تقدَّم يرسِّخ صورةً قويةً عن أستاذ المادة، ويكشف عن مكانتها وعمق وظيفتها، فإن من الواجب أن يجد المتعلم في الدروس اللاحقة ما يعزِّز هذه الصورة ويؤكِّدها؛ فلا يصح أن تأتي شخصية الأستاذ وأداؤه في الحصص الموالية مناقضَين للمستوى الذي ظهر به في الحصة الأولى.

وبهذا تُطوى هذه المرحلة، لتعقبها مرحلةُ الاتفاق مع المتعلمين على المستلزمات المطلوبة، على أن يراعي الأستاذ في تحديدها خصوصيةَ المادة، التي لا تقوم على كثرة الكم المعرفي؛ إذ قد لا يتجاوز الدرس فيها صفحةً ونصفَ صفحة في أكثر الأحوال، كما يراعي الوضعيةَ المادية للمتعلمين.

وبهذا تنتهي الحصة الأولى، وقد حقَّق الأستاذ فيها جملةً من المقاصد، أهمها:

- الترحيب بالتلاميذ، وتحفيزهم على بذل الجهد خلال الموسم الدراسي .
- كسر الحاجز النفسي الذي قد يحول دون انخراط المتعلم مع أستاذه والتفاعل معه في الدروس المقبلة .
- التعريف بمؤهلات الأستاذ العلمية، وترسيخ مكانته وسلطته المعرفية .
- إقناع المتعلمين بالأهمية الحضارية للمادة، ووظيفتها التأطيرية في الحياة، ودورها في ترشيد مسار العلوم وتسديد وجهتها .
- إبراز تمكن الأستاذ، ولباقته اللغوية، وسعة اطلاعه، وقدرته على إدارة النقاش، وإثارة الإشكالات، واستحضار الاعتراضات ومناقشتها؛ بما يعزز صورته الإيجابية في أذهان المتعلمين .
- الاتفاق على اللوازم والأدوات التي يحتاج إليها المتعلمون طوال مسارهم الدراسي.

ولعلنا نخصِّص مقالًا لاحقًا لتوجيهات منهجية تعين على تدبير الحصة الثانية والارتقاء بها. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.